هذه المرثية

في هذه المرثية محاولة لادراك وجود حي للموت، وجود يندرج في الحياة ويتقاطع معها ، يشتبه بها ويتفرد . يبدو الموت في هذه المرثية ، وفي كثير من الشعر الفرنسي المعاصر المكتوب فيه ، وظيفة من وظائف الطبيعة الحية ، وطورا منتظرا ومعاشا من أطوار دورة لا تكف عن تكرار ذاتها .

والاصل في هذا التصور هو انتزاع الموت من اطاره الاجتماعي المحدود الذي يبدو فيه موت الانسان حادثا فرديا معادلا للانقطاع والفقدان ، والعودة به الى مكانه الطبيعي المقابل لفعل الميلاد حيث يبدو حينئذ طرفا في جدل لا ينتهي ، وحيث يترك كل من الطرفين مكانه للطرف الاخر فهو ولادة وموت متعاقبان على الدوام ، يستوي في هذا المصير الانسان والسفينة والشجرة والسحابة .

سوى أن قصيدة أندريه ميكيل في رثاء ابنه تختلف مثلا عن قصيدة « المقبرة » لميشيل دوجي التي يرسم فيها منظرا غريبا لحديقة من الرخام الصقيل تتنزه فيها الاجساد الميتة وينهيها بقوله « فكر مليا في موتك » ـ تختلف قصيدة ميكيل عن قصيدة روجي في أن هذه صادرة عن نوع من التأمل الحكيم الملحد ، أما قصيدة ميكيل فصادرة عن ثكل حقيقي ووجد صوفي نشوان .

ان الاستعارة هي الاداة الرئيسية في قصيدة اندريه ميكيل كما هو الشأن أيضا في معظم الشعر المعاصر ، وهي استعارة تدهشنا بتأليفها بين العناصر التي لا تأتلف في المنطق النثري ، أو هي تدهشنا باكتشافها طاقة هذه العناصر على الائتلاف . هذا الاكتشاف الذي لا يتيسر الا للطفل العبقري ، أو لرجل يكتب بلغة ليست لغته الاصيلة ، فهو يتحرر من تقاليد الكتابة فيها ـ أحيانا بفضل جهله بهذه التقاليد ـ ويعالجها معالجة غريبة تفجر طاقات غير معهودة فيها، وخير مثال على هذه الاستعارة عنوان القصيدة ذاته « الابن المنصرم » ، فالانصرام هو الانقطاع لا يوصف به العاقل في العربية ، وانما يوصف به غير العاقل فيقال حبل منصرم ويستعار للمعنوي فيقال وقت منصرم أو ود منصرم ، لكن أندريه ميكيل زاد فاستعاره للعاقل عبارة عن موته وانقطاعه . لكن هذه الاستعارة مقصودة ، اذ بدأ هنا الشاعر في لغته الفرنسية حين وضع كتابا عن ابنه الميت سماه « Le Fils Interrompu » مستخدما في هذا الفعل الفرنسي Interrompre الذي يعني الانقطاع والتوقف ولا يستخدم كنظيره العربي أيضا الا لغير العاقل . وليست الاستعارة البعيدة أداة جديدة تماما لا في الشعر الفرنسي ولا في الشعر العربي ، لكن التوسع في استعمالها مما ساهم في خلق منطق شعري مستقل بنفسه هو الشيء الجديد . والنجاح الذي حققه أندريه ميكيل في استعمال هذه الاداة باللغة العربية هو ما أثار حماسي لعمله الذي اعتبره قصيدة رغم خلوه من الوزن الا في المقطعين الثالث والاخير .

وقد يظن قارىء القصيدة أنه بازاء ترجمة عربية لقصيدة مكتوبة بلغة أخرى وذلك بسبب ما يلمسه فيها من تلك الروح الغريبة التي أشرت اليها ، والحقيقة أن صاحبها وهو أستاذ الادب العربي بالكوليج دوفرانس نظمها بلغتنا مباشرة ، والمتأمل في القصيدة يرى أن فيها سليقة في التأليف بين المفردات العربية لا تتاح غالبا للمترجم وخاصة اذا كان أجنبيا ، ومن كان يملك هذه السليقة في الترجمة لا يعز عليه مثلها في التأليف.

بقي أن أشير الى أن في القصيدة بعض التعبيرات التي لا تقبلها لغتنا كقول الشاعر في أول المقطع الرابع « خيم اليابس حقل مروءتي » فخيم فعل لازم لا يتعدى الا بحرف جر أو بظرف كأن تقوم « خيم على ، أو خيم فوق » وكقوله في ذات المقطع « طالما أن تستريب ذاكرتي » فالمعهود في استعمال « طالما » ان يكون الفعل الذي يليها ماضيا ، وأخيرا قوله في السطر الثاني من المقطع الاخير « واستغيثوا اليانعين » فهذا الفعل لازم كذلك لا يتعدى الا بالباء .

أ. ع. حجازي
باريس

●